عباس محمود العقاد

روايـــة قمبـيز فى الميـــزان

obeikandl.com

تمهيد

فى سنة 569 قبل الميلاد ثار " أحمس" القائد المصرى على"وهاب رع "فرعون مصر فى ذلك الحين، فاستعان الأول بالجند الوطنيين واستعان الثانى بمرتزقة الإغريق، فانهزم فرعون وشاركه أحمس فى الملك ثلاث سنوات، ثم خرج فرعون لقتال شريكه فانهزم ثانية وثالثة، ومات قتيلاً بأيدى جنوده ، وبأيدى الجند الوطنيين فى أحدوثة أناس آخرين.

ورواية "قمبيز" التى نظمها الشاعر أحمد شوقى تدور على قصة قديمة خلاصتها أن "قمبيز" خطب ابنة أحمس فدس هذا إليه ابنة "وهاب رع" القتيل، فغضب " قمبيز" حين علم بالسر ووثب لغزو مصر وهرب إلى بلاط فارس، وخيانة فانيس قصة متواترة، أما سبب الغزو الصحيح فحب الفتح والغيظ من أحمس لأنه مالأ أعداء الفرس قبل ذلك بسنوات.

هذا محور الرواية بالإجمال

ونحن نكتب هذه العجالة لغرضين:

أحدهما تصحيح الشبهات التاريخية التى تمس سمعة مصر القديمة، وقد تمس كرامة المصريين فى العصر الحديث.

وثانيهما إقامة معيار "الشاعرية المبتكرة" يثوب إليه بعض القراء الذين يستخفون بالشعر ويجعلونه من الخسة والهوان بحيث تغنى فيه صناعة اللفظ والطلاء.

ولهذا قصرنا الكلام على قيمة الرواية الأدبية والتاريخية ولم نتعرض لقيمتها التمثيلية، فحسبنا أن نوفق إلى أداء ذينك الغرضين.

***

obeikandl.com

النظـــم

قمبيز أو " كمبوجة " كما يدعوه الفرس هو فاتح مـصر فى القـرن السادس قبل الميلاد، ونظن أن كارثة الفرس هى آخر مـا يحـق للـشاعر المصرى أن يبدأ باختياره إذا أراد الكتابة فى تاريخ وطنه، فإذا كتب فيهـا بعد أن يكون قد استنفد صفحات المجد فى ذلـك التـاريخ فـإنما عـذره الذى يسوغ له طرق هذا الباب أنه استخرج منه عبرة وفخر أو أحال ما فقه من هزيمة إلى معنى أشبه بالنصر وأستر للعـار، وذاك مـا لم يـصنعه شوقى مؤلف رواية " قمبيز " التمثيلية كما سيرى القراء.

فضل الشاعر الذى ينظم الروايات التمثيلية يبدو فى ثلاثة أشـياء: هـى (1) حـسن الـنظم والـصياغة و(2) تمحـيص حـوادث التـاريخ و(3) ابتكار الخيال فيما قصر فيه المؤرخون.

وسنبدأ بالكلام عن النظم فى رواية قمبيز لأنه أحـرى الأشـياء أن يجيده شوقى وأولاه أن يكون معجزته فى الصناعة الشعرية بعد مراسها نيفاً وأربعين سنة، فلو بلغ شوقى فى صوغ روايته مبلغ الإتقان المعجز لما كان ذلك كثيراً منه بعد طول المراس وكثـرة المنظـوم، ولمـا جـاز لـه أن يُزهى بهذا لأنه قسط ضئيل من النبـوغ أو لأنـه نبـوغ ميـسر لكـل مـن

يعالجه فى سعة وقت ورفه عيش وفروغ له من كل شاغل سواه، فهو كمال أدنى إلى النقص وإحسان أقرب إلى الإساءة.

هذا إذا بلغ شوقى فى النظم غاية الإتقان، فكيف ترى يكون لومه وخذلانه إذا هبط عن غاية الإتقان ؟ ثم هبط عن الإتقان المقبول؟ ثم هبط إلى السخف والغثاثة... فإذا هو يقنع من الإعجاز بالعجز ويرضى من السبق بالتخلف؟

أن لومه على هذا لعظيم، وأنه لأشد من لوم الفتاة الدميمة تهمل ثيابها طوعاً، ولا زينة لها غير جمال الثياب.

ولسنا نحب هنا أن نقيس الشاعر بالمقاييس التى يطول فيها اللجاج ويكثر الخلاف، كلا! بل نحن نقيسه بما يتفق عليه النظر ولا يسعه هو أو يسع أحداً من بطانته أن يمارى فيه فأُولى هذه الملاحظات قصر النفس واضطراب القوافى والأوزان. فإن جمال النظم فى الرواية التمثيلية التى تتلى على الأسماع أن تنسجم القافية وألا تفاجئ الآذان بالنقلة البعيدة فى الموقف الواحد دع عنك كلام الممثل الواحد، ولهذا فضل النظم على النثر ووجب التلحين والغناء فى هذه المنظمات.

وأياً كان اعتذار الشاعر فى تغيير الأوزان موقفاً بعد موقف نخال أحداً يعذره حين يغير الوزن فى البيتين الاثنين يلقى بهما الممثل والممثلان

فى الحوار الواحد أو فى النفس الواحد... فإذا أحد البيتين من بحر وقافيه وإذا البيت الثانى من بحر آخر وقافيه أخرى.

نعم إلى هذا الدرك من الخلل والإسفاف هبط شوقى فى نظم الرواية.

هبط إليه لغير ضرورة ولغير حكمة، إذ أن جميع مواقف الرواية التى على هذا النمط مما يسهل نظمه فى بحر وقافية، ولاسيما تلك البحور السهلة الذلول التى اختارها شوقى وخفيت فيها نغمة الوزن حتى لا تحس إلا بتلمس وطول إصغاء.

ولا نقول ذلك دون أن نشفعه بدليل محسوس لا مراء فيه، فهذه أبيات شوقى كما نظمها فى الرواية وهذه هى الأبيات بعينها منظومة على نسق واحد، فإن لم يكن هذا النسق أجمل وأسلس وأوفى بالمعنى من شعر شوقى فما هو بدونه فى إحدى هذه الصفات.

بدأت الرواية بالموقف الآتى بين تاسو ونفريت:

تاسو – أحوم حوم صنمى وحول هذى القدم

نفريت – حول رجلى أنا

تاسو – اجل حول هذا الـ شهد والزبد والنمير الصافى

ما بك يا نفريت ما هذا الاسى ما بال عينيك تريدان البكا

فها هنا بيتان اثنان يقولهما تاسو وحده كل منهما على بحر وقافية غير بحر الثانى وقافيته.! وها هما البيتان كما كان ينبغى أن ينظما بغير إخلال أو اختلاف فى اللفظ والمعنى.

نفريت. أحول رجلىّ أنا؟

تاسو. أجل! أعز من مشى

حول النمير العذب والشهـ ـــــــهاد والحسنا

ما بك يا نفريت ما هذا الاسى ما بال عينيك تريدان البكا ؟

وهكذا يستوى النسق بغير قصور فى اللفظ ولا فى المعنى ومثل آخر حين يتحادث تاسو ونتيتاس فيقول تاسو:

وما ذنبى ؟

فتجيبه نتيتاس:

لقد أحسنتَ لكن لى أنا الذنب

أنا أحببت عابثاً سادر القلب جافياً

يعشق الجاه والغنى لا يحب الغوانيا

فقد أجابت نتيتاس فى نفس واحد وجواب واحد بوزنين وقافيتين، وكان فى وسعها أن تجيب بما يأتى فلا تعدو ما أراده شوقى:

... لقد أحسنت لى وحدى أنا الذنب

وفيـــت لعابـــث يلهـــو ولنـــت، وقلبـــه صـــلب
ومـــا يـــصبو لغانيـــة ولكـــن بـــالغنى صـــب

ومثـل ثالـث حـين تـدعو القهرمانـة الجـوارى إلى الـرقص والتغنى بنشيد فرعون.

قمـن إلى اللهـو يـا عـذارى وخـذن صـنجا وخـذن دفـا
واهـتفن بالـشعر والأغـانى واقطعـن ليـل الـشباب قـصفا
وأنـشدن مـع القـوم نـشيد الملـك العـالى

بحران وقافيتان فى كلام ممثلة... وكان من أيسر الأمـور أن تلقيـه كله من بحر وقافية فتقول:

قمـن إلى اللهـو يـا عـذارى وخـذن صـنجا وخـذن دفـا
واهـتفن بالـشعر والأغـانى واقطعـن ليـل الـشباب قـصفا
وطفـن فى الجمـع منـشدات نـشيد فرعـون. عـاش ألفـا

فإن لم يكن فى هذا زيادة سائغة بل واجبة فما فيه إخلال ومثل آخر حين يخاطب قمبيز فرعون فيقول له.

رويـدك أنـت يـا فرعـون أنـى إذا حطمـت مـصر فمـن يقيهـا؟
أليست فـارس والأرض تحتـى وأمـرى فى الجنـوب وفى الـشمال
وقد غطت فضاء الأرض خيلى وهبـت فى الـسهول وفى الجبـال

فلو قال قمبيز فى البيت الأول.

رويدك أنت يا فرعون إنى إذا حطمت مصر، فمن أبالى؟

لانتظمت القافية ولم يتغير المعنى.

ومثل آخر حين يأتمر قمبيز ورجاله بقتل العجل فيقول أحدهم "احرقه".... فيغضب قمبيز لأن العجل يدنس النار وهى معبودة عند الفرس، ويكون حوار على هذا المنوال:

قمبيز: ماذا يقول الناس عنا غداً القوا إلى النيران بالفار

قد دنسوها وهى معبودهم من جثة العجل باقذار

قائد: مولاى ما ذاك فأر بل ألف فار وفار

آخر: يا سيد الأرض أبشر رأى الوزير أصابا

غدا يقولون بمنفيس تغدت النار بآبيس

وندع هنا الخطأ التاريخى فى هذا الحوار إلى مكانه ونكتفى بأن نجعل المتكلم الأخير يقول كلامه من بحر واحد وقافية واحدة، فإنه كان يستطيع أن يقول:

يا سيد الأرض أبشر رأى الوزير مصيب

غداً يقال تغدى بعجل مصر اللهيب

تطهر العجل فيه والنار طهر عجيب

فيزيد المعنى ويكمل....

فأما إن كان شوقى حريصاً على سجعة منفيس وآبيس فدونه أربع سجعات بدلاً من سجعتين:

مولاى أبشر !، لك تقديسى عبدك لم ينطق بتدليس

غداً يقولون بمنفيس تغدت النار بآبيس

ومثل آخر حين يحن قمبيز ويتخيل الأشباح والرؤى فيقول:

ماذا بيا ماذا بيا هذا شقيقى برديا

هذا شقيقى برديا وخنجرى فى صدره

جئت أخى تجزى أخاك عن قبيح غدره

فماذا يجرى لو قال قمبيز بدلاً من هذا:

ماذا بيا ماذا بيا هذا شقيقى برديا

وما أرى فى صدره أخنجرى؟ يا ويحيا؟

جئت أخى تجزى على الغدر أخاك الجانيا

ألا يكون كلامه خيراً وأوفق لتردد المخبولين، وأسلس من ذلك التخليط؟

***

وحسبنا هذا فإنما نريد التمثيل ولا نريد الاستقصاء ولا أن ننوب عن شوقى فى ترقيع نظمه الذى لا ينفعه الترقيع!

***

تلك ملاحظة أولى..

والملاحظة الثانية على اضطراب النظم حيرته فى تقليب الأسماء كلما أعياه الوزن واستعصى عليه سبك الاسم الأصيل فيه، ففانيس تارة فانيس وتارة أخرى فنيس ومرة ثالثة فانس وهكذا كيفما اجتمعت الفاء والنون والسين، وبساماتيك تارة "ابسما" وتارة أخرى بساما ومرة ثالثة ابساماتيك.. إلى أشباه ذلك من التلفيقات والتوفيقات، وقل مثل هذا فى آبيس وأبيس وأمازس وآمزس وأمازيس، وقل مثله فى صاوسايس وساييس، وتتاوتتى، ونفرت ونفريت، ونيتتاس ونتيت ونتاتس... وقل مثله فى سائر ما فى الرواية من أسماء.

وعلى ذكر الأسماء نلاحظ هنا – وإن كان هذا أدخل فى باب التاريخ – أن الناظم اختار الأسماء اليونانية وترك المصرية مع أنه قد زعم أو زعم له أنصاره أنه ما ألف الرواية إلا لإنصاف الوطنية المصرية من الجالية اليونانية التى تغلغلت يومئذ فى كل شئ وجارت على مناصب الدولة ومرافق الأمة، فشوقى يترك اسم هابى المصرى ويسميه

"أبيس" كما سماه اليونان، ويترك اسم حفرع التوراتى واسم "وهاب رع" المصرى ليسمى ذلك الفرعون باسم "ابرياس" اليونانى !! ثم هو يترك اسم أحمس المصرى الذى يعنى الهلال فى لغتهم ليأخذ باسم أمازيس وتشكيلاته الأخرى...! ويسمى قمبيز كما سماه الإغريق وكان فى وسعه أن يسميه كما سماه الفرس "كمبوجة" أو المصريون "كمباثت"... وليس فعله هذا من أنصاف الوطنية المصرية فى شئ! بل هو تغليب حديث لليونانية فوق ذلك التغليب القديم.

***

أما الملاحظة الثالثة على النظم فهى كثرة التجوز القبيح فى الفصل والوصل والهمز والتخفيف والمقصور والممدود، فيجرو ويهزا ويقرا ويطا وشى وتلجنى ويختبا – تجئ عنده فى مواضع يجرؤ ويهزأ ويطأ وشئ وتلجئنى ويختبأ، والسما والفضا والبها والما فى مواضع السماء والفضاء والبهاء والماء، وافاعى والشقى فى موضع افاعىّ والشقىّ، وأمثال ذلك كثير جداً على لسان جميع أبطال الرواية.

***

والملاحظة الرابعة أن الرواية لم تخل من مخالفة للنحو والصرف فى القواعد المنصوص عليها، ففيها يقول الناظم:

ويرجـــع النـــاس لهـــا إلا امـــــرؤ لا يـــــشعر

والصواب " ألا امرأ " لأن المستثنى منه مذكور والفعل غير منفى.

ويقول فى الحوار بين فرعون ونتيتاس:

فرعون: بخ بخ بنـــت أخى

نتيتاس: أنت يا قاتل – عمى.

توهم صاحبنا أن كل منادى ينصب، فنصب "قاتل" ولا وجه لنصبه. إنما يبنى على ما يرفع به لأنه نكرة مقصودة ويقول "قزح" ولا تذكر قزح إلا مع قوس.

ويقول:

وترى النيل دمـــــا والأ رض جرداء محـــــولة

والموصوف هنا معروف فلا وجه لدخول التاء، وفى الأساس "أصابهم محل ومحول بضم الميم. وقد أمحلت الأرض وأمحل أهلها، وبلد وزمان ماحل وممحل، وعن أبى دريد: أمحل الله الأرض، وأرض محل وأرضون محل ومحول بضم الميم "للجمع" و"أمحال"... وفى المحيط: "مكان محل وأرض محل ومحلة ومحول وممحلة وممحل وممحال" وليس بين هذه الصيغ كلها صيغة فعولة.

وقال بلسان نتيتاس وهى تخاطب قمبيز ليمنع فانيس الكلام:

علمت حقده على قومى فلا تدعه ينفث فىّ سم حقده

وجزم "ينفث" خطأ متفق عليه، لأننا لا نستطيع أنْ نقول "أن لا تدعه ينفثْ" وإنما يستقيم المعنى إذ نقول "لا تدعه فهو ينفث سم حقده" أو "لا تدعه وإلا فهو ينفث سم حقده" فيتعين رفع ينفث على هذا التقدير الذى لا تقدير سواه.

ولم تخل الرواية كذلك من السرقة الظاهرة فى النظم كقول المؤلف:

كذبت على يابنة ابرياس حذار حذار من بطشى وفتكى

وهو مأخوذ بحرفة من قول الشاعر يعنى الدنيا.

تقول لكل مستمع إليها حذار حذار من بطشى وفتكى

أو كقوله. "تعيش مصر وتبقى" وهى كلمات البهاء زهير مأخوذة من بيته:

تعيش أنت وتبقى أنا الذى مت عشقاً

* * *

أضف إلى هذا تبذل اللفظ فى قوله بلسان قمبيز:

لست بالعجل أبالى وعلى النار أبول

وقوله بلسان أحد المصريين:

ليـــته بال عـــلى نيرانكم بولـــــة تطفى لظـاها واللهب

فهذا تبذل مرذول كان لشوقى ألـف مندوحـة عنـه، ولم يكـن لـه موجب من حكاية التاريخ ولا من الذوق ولا من وقع التمثيل!!

وتلك ملاحظات سريعة على النظم، وأما الملاحظات على التاريخ فهى أكثر وأعجب.

***

opeikandl.com

التاريـــخ

للشاعر أن يسد نقص التاريخ فى حيث سكت، ولـه أن يفـتنّ فى تصوير حقائق التاريخ ليبعثها جديدة ويلبسها ثـوب الحيـاة المـشهودة، ولهذا تسمى الرواية تاريخية ويراد النظم فى الموضوعات المهجـورة، أمـا أن يتناول الشاعر الحقائق ليمسخها ويناقـضها فـذلك مـا لا يجـوز لـه بحال ولا يغنى فيه عذر، إلا أن تكون رواية التاريخ معناها أن نـشوهه ونكذب عليه، وذلك معنى من الرواية التاريخية لا يخطر لأحد على بال.

نعم لا يخطر لأحد على بال إلا شوقى وأمثاله، فـإن قـارئ روايـة قمبيز ليرى كأنما هذا الشاعر لم ينظمها إلا ليمسخ تلك الفترة من تاريخ مصر، فيمحو منها كل ما هو حقيق بالذكر ويذكر فيها كل خطـأ ولغـو وفضول، وهذا بيان وجيز لبعض تلك الأخطاء.

شخصية قمبيز

فاسم الرواية "قمبيز" كما علم القراء، ومن حق هذه التسمية على المؤلف الصحةُ والإبداع فى وصف ذلك الرجل الـذى سـميت باسـمه الرواية. فإن لم تكن صحةٌ وإبداعٌ فلا أقل من اجتناب الكذب الـصراح فى حيث نطقت الأخبار بغير تلبيس ولا إبهام.

ولقد نطقت الأخبار بأن ملوك الفرس كانوا يشربون الخمر ويتشاورون على أمور الدولة فى مجالس الشراب، ووصفت الأخبار قمبيز خاصة بأنه كان سكيراً مدمناً ما يكاد يفيق، حتى شاع عنه ذلك وتقوّل الفرس أن رعشة الإدمان أصابته فى يديه فما يقوى على تسديد سهم إلى غرض، ومن أجل هذا تناول قوسه وسدد سهمه إلى قلب ابن "بركساسب" ساقيه الفتى الجميل فأرداه كما روى هيرودوت، ليرى الناس أن الخمر لم ترعش يديه ولم تزغ عينيه... وهذا هو قمبيز فى التاريخ فانظر كيف وصفه شوقى على لسان أحد الفارسيين.

لكن له شغل عن الخـ ـمر بطول غـزوته !!

***

ومعروف متواتر أن قمبيز قد مثل بجثة الملك أحمس وأمر بإحراقها فى النار، ولاحظ هيرودوت ما فى ذلك من مخالفة الشعائر الفارسية عندهم لاعتقادهم نجاسة الجثة وقداسة النار، فعجيب من قمبيز هذا أن يغضب – كما جعله شوقى يغضب – حين اقترح عليه أحد رجاله أن يحرق الثور هابى أو آبيس !! مع أن الثور من المخلوقات المباركة فى شريعة الفرس: خلقه أو رمزد اله النور فى غفلة اهرامان إله الظلام.

ولقد عرف عن الفرس أنهم كانوا يحرقون الأحياء من الأسرى والمجرمين وأنهم هموا بإحراق قارون حين اسره كورش أبو قمبيز، فلا الشعائر إذن تخالف بإحراق هابى ولا الغضب من ذاك معقول.

وقال شوقى على لسان قمبيز وهو يخاطب العجل:

وهـــذا خنـــجرى الماضـى فخـــــذه بين قرنيـــــكا

بين قرنيكا؟ ما كان ينقص صاحبنا إلا أن يجعل قمبيز ينطح العجل برأسه ويفعل ما يفعله كل ذى قرنين.

***

obeikandl.com

قتل هابى

ما جنى على شوقى هذه الجناية التاريخية إلا القافية لعنها الله!! وإلا فماذا كان يجرى لو أنه قال "خذ خنجرى" ولم يذكر الموضع الذى طعن فيه العجل؟؟ إن ذكر القرنين هنا هو الذى شط بشوقى عن الحقيقة التاريخية!! فإن المؤرخين ذكروا أن الطعنة كانت فى الفخذ وزعم الكهان أن قمبيز مات بطعنة فى فخذه على سبيل القصاص الإلهى منه لجرحه العجل "هابى"، واختلفوا فى الطعنة هل جاءت عن عمد أو على غير عمد ولكنهم لم يذكروا قط أنه طعن بين قرنيه.

لو كان لشوقى بصيرة مؤرخ وخيال شاعر لعرف أن حكاية قتل العجل بتلك الطعنة خرافة لا تثبت على التمحيص وإن وردت بها بعض الروايات، لأن طعنة فى الفخذ لا تقتل عجلاً قوياً ولا غير قوى، ولم يكن قمبيز جزاراً حتى يجهد لقتل فريسته فلا يدعها إلا وهو قاتلها أو مصميها، فنحن نعلم ما يحتاج إليه الجزارون من الجهد لقتل الثيران، وليس بالمعقول أن قمبيز قد رضى لنفسه هذه الجزارة واستعد للذبح هذا الاستعداد، فإنما كان يعينه أن يرى الكهان جهلهم وضلالتهم إذ يعبدون مخلوقاً من لحم ودم يثيبه عبده إذا شاء وينفذ فيه السلاح، وقد ضحك من الكهان حين أسال دم العجل وخاطبهم فى هذا المعنى كما

جاء فى رواية هيرودوت، فهو قد عنى ذلك ولم يعن أن يحترف الجزارة إكراماً لهابى!! على أننا لو فرضنا أن قمبيز طعن العجل بين قرنيه فليس إلا خيال كخيال شوقى العقيم يتصور أن الطعنة فى ذلك الموضع الصلب تميت الثيران وهى تضرب مرات بالفؤس الضخام فلا تموت ولا يستغنى الجزار بعد ذلك عن الإجهاز عليها بالسكين، ولسنا نكتفى بالفرض هنا بل نذكر الفرض المعقول ثم نؤيده بالأسانيد.

ففى المتحف المصرى باللوفر ألواح تسجل موت العجول المقدسة عثر بها ماريت باشا حين كشف مدافنها فى البدرشين، ومنها لوحان أحدهما عن العجل الذى مات فى أيام قمبيز وولد على ما يظهر فى السنة الخامسة والعشرين من حكم أحمس، والآخر عن العجل الذى مات فى السنة الرابعة لحكم دارا... ويرى مسيودى روجيه صاحب كتاب المأثورات المصرية "أن هذا هو العجل الذى طعنه قمبيز فى ثورة غضبه... وأنه على هذا الاعتبار يكون قد عاش بعد طعنته تلك خمس سنوات على التقريب".

وهذا ترجيح يزكيه العقل وتمحيص الأخبار وسجلات الآثار، ولكننا لا نحب أن نأخذ الشاعر بالترجيحات ولا نزيد على أن نسأله: من أين جاء بالطعنة بين القرنين؟ أتراه جاء بها ليبر بعهد قطعه على

نفسه لينقضن التاريخ حيث استطاع نقضه بغير سبب ولا جدوى ؟ أما كان فى وسع الشاعر أن يرجح حياة هابى وموت قمبيز بعد العدوان عليه فيكون هذا أمضى مع سياقه وأدل على العبرة التى أطال فى بيانها وأبلغ فى إظهار النقمة الإلهية التى تحدث بها كهان المصريين؟!

***

obeikandl.com

بردية

وزعم شوقى أن قمبيز قتل أخاه "بردية" فى ساحة القصر على مشهد من حراسه وحرمه، أما الثابت الذى لا اختلاف فيه فهو أنه قتله خفية ولم يعلم بموته أحد من القصر ولا من الشعب، حتى أن "جوماتا" الثائر الذى كان يشبه بردية كل الشبه استطاع أن يقنع الشعب ويقنع نساء القصر بأنه هو بردية ابن كورش وشقيق قمبيز، فصدقه الجميع ودانت له البلاد وطارت الرسل إلى قمبيز تنبئه بأن أخاه قد تمرد عليه وجمع أقطار الدولة حوله، فشك هذا بادئ الأمر فى إخلاص "بر كساسب" الذى عهد إليه فى قتل أخيه، ثم تبين له خطؤه فأذاع الحقيقة بين رجاله وحامت الريب حول الدعى الثائر، وتلك رواية لم يشذ عنها أحد من المؤرخين.

وكذلك لم يشذ أحد من المؤرخين عن الجزم بموت قمبيز فى غير مصر وأنه قضى عليه بعدما تجاوز أرضها إلى البلاد السورية فى طريقه إلى فارس، وإنما شذ شوقى وحده لأنه أمين على يمينه ليفسدن التاريخ وليطعننه بين قرنيه!

***

أخت قمبيز

ولقد غلط شوقى فى أخت قمبيز كما غلط فى أخيه. فسمى الأخت التى قتلها "أتوسة" وأتوسة لم تمت فى حياة قمبيز بل عاشت حتى تزوجت "دارا" وولدت منه "خشا يارش" الأول وزينت له أن يوليه العهد بدل ابنه الأكبر لأنه من سلالة كورش العظيم. أما التى قتلها قمبيز فهى أخت أخرى لامته على فتكه بأقربائه فرفسها برجله فماتت فى أثر هذه الرفسة لأنها كانت حاملاً فيما زعم رواة الخبر، ولكن صاحبنا شوقياً زنقته شهوة الخطأ فسمى الأخت باسمها وأملى على ضمير قمبيز الثائر أن يقول:

أتوسة أختى ألا تصفحين؟ أتوسة زوجى ألا تغفرين؟

فشفى نفسه بذلك الغلط المستفيض فى أمر قمبيز وأخى قمبيز وأخت قمبيز!!

وقد فاته فى هذا الحادث أن ينبه إلى بناء قمبيز بأخواته وما فى ذلك من الغرابة والاجتراء على حرمات دينه وعادات بلاده، ثم ما فيه من دلائل الشذوذ الذى يتمم العلم بأخلاق بطله، ولو أنه نبه إليه لعلم نظارته أن ذلك المخبول لم يكن ليحفل النار وما أحرقت من "هابى"

أو غير " هابى "... ولكن شوقياً ملهم فى الغلط فلا يحذف اللغو ولا يثبت ما يفيد.

***

ذلك مجمل عن قمبيز بطل الرواية الأكبر، أما أبطالها الآخرون فلكل منهم نصيب على قدره من الأخطاء والأكاذيب.

فهذا بساماتيك يقتله شوقى بعد غزوة قمبيز للنوبة وهو قد قتل قبل تلك الغزوة، وذلك أحمس ينقل خبر موته إلى قمبيز وهو فى فارس يتأهب لغزو الديار المصرية.. أما الرواية التى ذكرها هيرودوت وجاراه عليها المؤرخون فهى أن قمبيز لم يعلم بموته إلا بعد إشرافه على الفرمة!!

***

فانيس اليونانى

وذلك فانيس اليونانى يجعله شوقى..

أمير الجـــيش فى منـــف وأســـــوان وسايـــــس

ومـا كـان للجـيش المـصرى أمـير واحـد فى جميـع هـذه الـبلاد، وما كان فانيس إلا ضابطاً من الضباط لم يبلغ مرتبة الإمـارة، والمؤلـف يميته وهو يقول:

قد خنت مصر وخنت سادتى بها لكننى ما خنت قـــط بلادى

وهذا كذب، لأن فانيس خان جند اليونان حين خان مـصر ولهـذا أبغضوه ووغرت صدورهم عليه.

ثم هو يميته جاهلاً بمصير أولاده فيلقى عـلى لـسانه وهـو يلفـظ الروح هذا البيت:

يونان تغفر لى وآلهتى بهـــــا سهرت عيونهـم عـلى أولادى

ثم يجعل مصرياً يقول:

فانيس لا علم له بما جـــرى قد قتلوا أولاده ومـــــا درى

كذلك يزعم شوقى عدو التاريخ. أمـا الـذى رواه هـيرودوت – وهو وفانيس من بلدة واحدة فى آسيا الـصغرى – فينـاقض ذلـك كـل

المناقضة، لأنه روى أن الجنود قتلت أولاد فانيس أمام عينيه ومزجت دماهم بالخمر وشربتها فى وسط الميدان، ولو كان الجنود الوطنيون هم أصحاب هذه الفعلة لجاز أن يقول قائل أن شوقياً تعمد الإغضاء عن الحقيقة ليرحض اللوثة عن سمعة بلده وتاريخه، ولكن هيرودوت نسب الفعلة إلى الجنود الأجنبية المرتزقة ولم ينسبها إلى المصريين.

***

obeikandl.com

والتاريخ يروى عن اليونان نظائر لهذه الفعلة فى حروبهم مع الأجانب، فقد ذبحوا ثلاثة من أسرى الفرس قبل وقعة سلاميس وصنعوا بهم مثل ما صنع جنودهم المرتزقة بأبناء فانيس، فكان أولى بشوقى أن يذكر الحقيقة ولا يناقضها لأنه ينصف بذلك الوطنية المصرية من طغيان الدخيل. بل كان أولى به أن ينزه سمعة المصريين عن عار الضحايا البشرية التى نزهتهم عنها الحقيقة.

فليس فى الآثار المصرية أشارة واحدة إلى التضحية البشرية فى شعائر مصر القديمة، وكل ما قيل عن التضحية بالبنات فى موسم الفيضان أساطير لا سند لها من الآثار ولا من أقوال المؤرخين الأقدمين. فإن أول من أشار إلى هذه الأسطورة هو "المقريزى" الذى تلقفها من الأفواه فى مصر ولم يرجع بها إلى سند صحيح، وأين عهد المقريزى من عهد قدماء المصريين ؟ لا بل قد نفى "هيرودوت" عن المصريين وصمة التضحية البشرية نفياً جازماً خلال سرده لحكاية هرقل وما تقوّله عنها الإغريق الأولون.

ويرحض هذه الوصمة عنهم أنهم كانوا يدفنون مع كبار الموتى تماثيل يرمزون بها إلى الخدم والأتباع تحرجاً من قتل الخدم والأتباع على

أجداث الملوك والأمراء كما كان يفعل غيرهم من أمم العصور الغابرة، فأجدر بالمصرى أن يفخر بهذه الحضارة العالية وألا يتطوع – على الأقل – لتلويث تاريخه بتهمة لم يقم عليها دليل ولا شبه دليل! لكن شوقياً موكل بقلب الحقائق وتشويه المفاخر من حيث زعم أنه يشيد بالمفاخر ويدحض الأباطيل، ولهذا أجرى على لسان نتيتاس ذكر الخرافة المكذوبة عن عروس النيل وجعلها تقول:

كل عام صبية من بنات الشـ ـــعب تُختار للفداء فتفدى
تنزل النيل غير عائقة ما فيه للموت من حياض وورد
سمحت بالحياة فى غير سأم وسخت بالشباب فى غير زهد

وما كان المصريون يلقون فى نهرهم إلا عروساً من الطين ولا كانوا يسمونها عروس النيل إلا لأنهم كانوا يحسبون النيل زوجاً لأرض مصر يزورها العام بعد العام، فهم يرمزون للأرض كلها بدمية من طينها يحتفلون بزفافها إليه، وهذه هى القصة لا قسوة فيها ولا وحشية ولا شناعة، فأنظر إلى الصديق الجاهل كيف يصنع بمن يواليه... إن صح أنه يواليه.

***

شجاعة المصريين

وانساق شوقى مغمض العينين مع مؤرخى الإغريق فافترى على شجاعة المصريين فى ذلك العصر افتراء تنفيه جميع الوقائع التى سجلها أولئك المؤرخون، وفات خياله المظلم الكليل أن يدرك موضع الهوى والغرض من نفوس اليونان الأقدمين إذ يتكلمون عن الجنود الوطنيين، فقد كان ضلعهم ظاهراً مع " الملوك الفراعنة " المكروهين الذين كانوا يحذرون التعويل على الجنود الوطنية فيكثرون من استخدام الجنود اليونانية، وكان أولئك الفراعنة يحابون اليونان ويتبرعون بالمال الكثير لتعمير هياكلهم فى بلادهم وإقامة الهياكل لهم فى جوار المعابد المصرية. وكان أبناء البلاد يمقتون فراعنتهم من جراء هذا ويتربصون بهم وبالجنود الدخيلة الدوائر وينعتون هؤلاء بأقبح النعوت ويحرمون الأكل من أيديهم والتنزل إلى معاشرتهم، ويقدحون فى شجاعتهم وأمانتهم بكل لسان.

فماذا كان ينتظر شوقى من اليونان أن يقولوا عن أنفسهم وعن أبناء البلاد الناقمين عليهم؟ أكان ينتظر منهم أن يتهموا أبناء وطنهم بالفضول والتطفل ويعترفوا للمصريين بشجاعة تغنيهم عن الجندى

الدخيل؟ أكان ينتظر منهم أن يكرهوا "وهاب رع" وأحمس ومن سبقهما كما كان المصريون يكرهونهم ويتبرمون بحكمهم؟ وإذا لم يفعل اليونان ذلك فماذا تراهم يقولون إلا أن المصريين ضعاف وأنهم هم حماة الديار؟ وأن الفراعنة على صواب حين يميزون بين هؤلاء وهؤلاء؟

على أن استخدام المرتزقة خطة لم تنفرد بها مصر أيام الغزوة الفارسية، لأنهم كانوا يُستخدمون فى جيش فارس وساموس فى هذه الفترة بعينها، فليس من الإنصاف أن يُتخذ وجودهم فى الجيش المصرى برهاناً على نقص فى كفاءة المصريين للجندية والقتال.

فكل ما افتراه مؤرخو اليونان على شجاعة المصريين فى ذلك العهد إنما كان حديث موتور ودفاع دخيل ممقوت، وما كان هذا ليخفى على أحد له بصيرة وفطنة وله إلمام بمواقع الأغراض والدعايات. فما كان يجمل بمؤرخ باحث – ولا بمصرى على الخصوص – أن يتخذ شهادة الكتاب اليونان دليلاً على جبن آبائه الغابرين، ولو صفر التاريخ من الأدلة النافية لهذه الفرية، لكان للمصرى شبه عذر فى الإصغاء إليها والاهتمام بشأنها.

أما والتاريخ حافل بالدلائل النافية لها فلن ينساق مع أكاذيب اليونان الأقدمين إلا رجل تعوزه الغيرة أو يجنح به الغرض إلى تصديق

تلك الأكاذيب، وقد يكون شوقى صاحب غرض فى هذا، لأن فيه عرقاً يمت به إلى اليونان كما يقول.

وإلى القراء بعض الدلائل التى حفل بها التاريخ حتى فى رواية أولئك المؤرخين المغرضين.

فمنها أن الفرقة المصرية هزمت الفرق المرتزقة فى كل مرة اجتمعت فيها تلك الفرقة إلى فرد راية، فلما خطر لـ " وهاب رع " أن يشد أزر " ذكران " الزعيم اللوبى فى حربه للمستعمرة الإغريقية ببرقة رأى من الحكمة ألا يرسل فى هذه الغزوة جنوده المرتزقة مخافة أن يتمردوا فلا تطيب نفوسهم لحرب أبناء وطنهم، وعلم أن الفرقة المصرية تبغض الإغريق وتصدق فى قتالهم فأرسلها إلى الحدود، ولكن حسابه ما لبث أن التوى عليه فكرّت الفرقة المصرية راجعة إلى حربه حين أحست اجتماع الكلمة ووحدة القيادة، فجزع وهاب رع واستعان بجميع جنود الإغريق وخرج بهم لقتال الثائرين فهزمه هؤلاء شر هزيمة ورفعوا قائدهم أحمس إلى العرش شريكاً لذلك الفرعون، ولولا أن علو أحمس على زملائه قد أثار فى نفوسهم حسد الند للند فخاف اجتماع كلمتهم عليه لما عدل بعد ذلك عن تأييد الجنود الوطنية إلى مشايعة الأجانب والمرتزقين.

هـذا مـا حـدث فى الوقعـة الأولى بـين المـصريين والإغريـق، فلـما التقـى الفريقـان بعـد ذلـك مـرتين كـان الغلـب الحاسـم فى المرتين للمصريين.

إلا أن التعصب الأعمى يسول للمؤرخين المغرضـين أن يحـاولوا إقناعنا بالنقيضين للإشادة ببـسالة اليونـان والتـشهير بـضعف مـراس المصريين. فلما أرسـل " وهـاب رع " معظـم جيـشه الـوطنى إلى قتـال الإغريق ببرقة قال أولئك المؤرخـون أن الإغريـق أبـادوه إلا فلـولا لا يحسب لها حساب، ومن ثم نعلم أن الجيش الوطنى قد مُنى بخـسارة لا تعوض وآب أضعف وأخوف مما ذهب، لكنهم يـذكرون الحـرب بـين المرتزقة والجند الوطنى بعد وقعة برقة فيدعون أن الوطنيين إنـما تغلبـوا على خصومهم بكثرة العدد لا بالبأس والشجاعة... فهنـا هـم كثـيرون وهناك هم فلول !! وليس هذا الإدعاء المتناقض إلا من تعصب اليونان لليونـان، وكراهـة المنـافس للمنـافس، ولـيس ترديـده فى العـصور المتـأخرة إلا تعـصبا جديـداً مـن الأوروبيـين المحـدثين لأولئـك الأوروبيين الغابرين.

***

وأدل مما تقدم على منعة مصر وهيبة جيشها أن كورش مؤسس دولة الفرس وفاتح الأمصار شرقاً وغرباً قد تهيب أن يقدم على غزوها فتركها وشأنها كما قال مسيو "جستاف جكفية" فى كتابه "تاريخ الحضارة المصرية"... مع أن كورش كان يعلم اشتراكها فى الحلف الذى تألب عليه من البابليين والليديين والسبرطيين والمصريين، فحارب بابل وليدية وسوّف فى محاربة مصر إلى أن مات.

ومن الدلائل على كذب الأقاويل عن هذه الفترة أن قمبيز – مع تهجمه وفتوته – لم يجسر على غزو مصر إلا بعد أن أستوثق من خيانة فانيس اليونانى واطلع منه على أسرار الهجوم وفوض إليه رشوة البدو الضاربين فى صحراء سيناء، ثم لم يكفه هذا حتى ألب الأسيويين على المصريين وأعدّ لهم ستة أضاف قوتهم من الفرسان وجيش مشاة يفوق جيشهم بعدد غير قليل. وأسلحة لا عهد لهم بها فى ذلك الزمان. وأسطولاً لبوكرات الطاغية الساموسى مال إلى فارس بعد أن كان فى حلف المصريين.

***

ومن الحيل التى لجأ إليها قمبيز للغلبة على المصريين بإرشاد فانيس اليونانى أنه رفع الحيوانات الصغيرة التى يقدسونها ويحرمون إيذاءها

على دروع جنوده فتورع المصريون أن يقذفوها بسهامهم وآثروا الهزيمة على الجحود وعصيان الدين، ولا ندرى لماذا أغفل شوقى هذه القصة ولم يشر إليها بحرف وهى كما يرى القارئ مرتع للشعر ومسرح للخيال، وفيها ما يخفف عار الهزيمة فيجعلها ضرباً من التقوى الدينية ويمحو عنها الجبن وفتور الوطنية. ثم هى ليست حقيرة السند مخترعة من الأساطير. لأن بوليمينس أثبتها فى كتاب التعبئة والحيل الحربية الذى ألفه للعاهل الفيلسوف "ماركس أورليوس" فإن صح أن شوقياً تحرى فترة الفتح الفارسى ليمحو عاره فهذه القصة ترضى خيال الشاعر وبحث المؤرخ وعبرة الحكيم، وهى وما سبقها من الدلائل كفيلة بجلاء الوصمة وإلباس الخذلان لباس الشرف والعزة، وهى كذلك أجدى وأبلغ فى الإقناع من تلك الجعجعة الخاوية التى ملأ بها أفواه المصريين ولم تكن لتدل إلا على السخف والغباء.

ولقد غلبت مصر وملكها الفرس وما انكسرت قلوب أهلها ولا خنعت رقابهم لنير الفاتح القوى المعتز ببأسه وسلطانه، فما برحوا يتحينون الفرص ويثبون على غالبيهم مرة بعد مرة حتى قلق دارا الأول وحضر إلى مصر وقتل "اريانذ" والى الفرس الذى كان يتغطرس على المصريين ويستفزهم إلى الغضب والثورة، وبالغ فى تمليق الشعب

والكهان حتى بنى معبداً لأمون واشترك فى موكب الحزن على "هـابى" واكتتب بما يعدل اثنين أو ثلاثة وعشرين ألف جنية من نقود هذه الأيام، مكافـأة لمـن يعثـر بعجـل جديـد تجتمـع فيـه الـشروط المفروضـة فى أسفار الكهان.

وظهر شمم الكهان المصريين على أممه يوم اقترح "دارا" عليهم أن يقيموا تمثاله إلى جانب تمثال "رعمسو الثانى" فى معبد فتاح، فلـم يبـال أحدهم أن يجبه بتفضيل رعمسو عليه وأن يقول له فى غـير مواربـة ولا دهان: أنك لم تفتح فتوح ذلك الفرعـون العظـيم ولم تبـل مثـل بلائـه، فتلقى الجواب كاظماً وقال فى حلم وأناة: " سأفعل كما فعـل إذا عـشت كما عاش " وعدل عن إقامة التمثال إذعاناً لكبرياء رعاياه المغلوبين.

ثم استرجعت مصر استقلالها وكافحت حوله كفـاح المـستميت، ولا محل هنا لتفصيل الوقائع التالية لأنها خارجة عما نحن فيه.

فالحوادث التى انتقلت إلينا من مؤرخى اليونان أنفسهم تنفى مـا تخلل رواياتهم من سـوء الـشهادة للـشجاعة المـصرية وسـائر الخلائـق الكريمة، ويجـب عـلى المـؤرخ المـصرى أن يفطـن إلى هـذا ولا يجـارى الأحاديث المشاعة التى لن تخلو من الهوى ولن ترتكز إلى سند صحيح.

على أن اليونان لم يكونوا بالمغرضين وحدهم فى تقرير تاريخ تلـك الأيام لما هو معلوم من المنافسة بينهم وبين الوطنيين، فإن هنالـك شـعباً

آخر كان يخامره الغرض فى تقرير ذلك التاريخ لأسباب تشبه تلك الأسباب، ذلك هو شعب إسرائيل.

لقد كان الإسرائيليون ساخطين على مصر لأنها قهرتهم قديماً وسخرتهم فى بلادها تسخير العبيد، فمازالوا ينطوون لها على ضغن ويتمنون لها الهزيمة والسقوط، ثم نشبت الحرب بين البابليين وبنى إسرائيل ففزع هؤلاء إلى فرعون وأبطأ فرعون فى إسعافهم فهزمهم البابليون وحملوهم مأسورين إلى أرض بابل، فصب كهان إسرائيل غضبهم على مصر وأنذروها بمثل هذا المصير، وجاء كورش مؤسس الدولة الفارسية فقهر البابليين وسمح لبعض أسباط بنى إسرائيل بالقفول إلى أرضهم فحفظوا له هذا الجميل وكان سبباً جديداً لميلهم مع الفرس وتمنيهم الهزيمة لعدوتهم مصر، فالأحاديث التى تحدرت إلينا من ناحية بنى إسرائيل عن فترة الغزوة الفارسية كانت من ثم عرضة للمبالغة والتشويه وسوء الشهادة للمصريين، إذ كان فى ذلك إرضاء للثأر القديم وتصديق للنبوءات المأثورة، وهذه حقيقة لا يصح نسيانها فى تمحيص أخبار تلك الفترة المثقلة بذكريات العصبية والدين.

ثم جاءوا لأربيون المتأخرون فوافقهم أن يسجلوا الضعف والجبن على الشرق ويؤثروا أسلافهم فى أوربا بمناقب الشجاعة والإقدام

والتغلب والسيادة، ووجدوا فى ذلك ذريعة إلى تسويغ الاستعمار وتوهين عزائم الأمم المغلوبة وإقناعها بما قسم لها من مصير الذلة والخضوع، فقرروه وابدأوا وأعادوا فيه وحاولوا أن يبثوه فى قلوب الناشئة الشرقية لتنمو وتكبر وهى على هذه العقيدة المميتة، ثم زادوا فقرروا أن مصر لم تستقل قط بعد الغزوة الفارسية ولم يحكمها أحد أولئك الأبناء!! ولو قالوا مثل ذلك عن انجلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو أية دولة أخرى لأصابوا من حيث لم يصيبوا فى كلامهم عن هذه البلاد، فكل هذه الدول لم تعرف لها أسرة مالكة من صميم أهلها منذ زمن طويل، ومزية مصر أنها كانت تُحكم لحساب أهلها وتصبغ حكامها بصبغتها فى الدين والشعائر والألقاب، حتى " قمبيز " انتحل فيها اسماً من أسماء الفراعنة واتخذ له أسرة معدودة من أسراتهم المتعاقبة، وحتى الرومان الطغاة سادة الأرض قد دانوا بالمسيحية يوم نشب النزاع بين مصر وبينهم فكانوا هم فى جانب الديانة القديمة وكانت مصر فى جانب الدين الجديد.

فمصر والدول الأوربية سواء فى قيام حكام فيهن جميعاً من غير أبناء البلاد، وقد تكون مصر خيراً منهن جميعاً لأنها لم تُحسب قط سلعة "خاصة" كما حسبت أمم أوروبية كثيرة فى صفقات الزواج والميراث.

ولو غير شوقى تعرض لفترة الغزوة الفارسية لكان له فى هذه الحقائق مجال أىّ مجال لأنصاف الوطنية المصرية واستخراج الجوهرة الصافية من خلل ذلك الركام المهيل، ولكنها فترة منكودة الحظ فمن نكد حظها أنها وقعت فى يد هذا المؤلف الذى لا خطر عنده للوطنية ولا للتاريخ ولا للخيال!.

***

على أن الذى يضحكك ملء شدقيك من شوقى أن تراه متعالم بالروايات التاريخية ويخوض بينها بالترجيح والتعليل كأنه يميزها عن دراسة ومعرفة وعناية نزيهة، وهو علم الله ما ألم منها بكثير ولا قليل إلا خطف المتعجل الجاهل الذى لا يصبر على دراسة فلما سأله مندوب "الصباح" الأسبوعية أصحيح أن نتيتاس كانت زوج كورش آبى قمبيز ولم تكن زوجة قمبيز ؟ لم يتحرج شوقى أن يخبطها خبط عشواء ويلقى هذا الجواب الذى ننقله بنصه لأنه أضحوكة الأضاحيك.

قال وقاه الله شر التاريخ ووقى التاريخ شره:

" الذى قال ذلك هو الدكتور ايبر... وقد كتبها متأثراً بالحضارة اليونانية شأنه فى ذلك شأن كل المؤرخين الإفرنج الذين يتكأون فيما

يؤرخون على الحضارة اليونانية غير عابئين مطلقاً بالحضارة المصرية فى ذلك العهد، وأنا المصرى ما كان لى أن أسلك الطريق الذى سلكوه فى الكتابة عن هذه الحقبة من الزمن، وإنما كان على أن اعتمد على الحضارة المصرية وأن أسمو بالناحية الوطنية بما يجعلها فى مستوى أرفع من النواحى الأخرى، ولقد فعلت!! ".

والله صحيح!.. لقد فعلتها جزاك الله بما فعلت يا شيخ! ومن غيرك يستطيع أن يخبطها هذه الخبطة التى تربى أكاذيبها على الكلمات فيها والحروف؟ من غيرك يستطيع أن يزعم فى عبثه وتخليطه أن ايبر هو صاحب تلك الأحدوثة وأنها إغريقية تجحف بالمصريين؟ تقولها أنت لأنك آليت لتمثلنّ بالتاريخ شر تمثيل... أما التاريخ فله كلام غير هذا الكلام بل نقيض هذا الكلام.

فلا أيبر هو صاحب تلك الأحدوثة التى رجحت أن "نتيتا" خُطبت لكورش ولم تخطب لقمبيز، ولا هذه الأحدوثة إغريقية تجحف بسمعه المصريين.

أما أيبر يا هذا فتلك قصته "الأميرة المصرية" مترجمة إلى العربية والإنجليزية والفرنسية وكلها دائرة على الأحدوثة الأخرى التى تقول أن " نتيتا " خطبت لقمبيز لا لكورش أبيه.

وأما الأحدوثة التى زعمتها إغريقيـة فـما هـى إلا دعايـة مـصرية بأنفسهم ونفض ذلة الأسر عن كواهلهم، فقالوا أن قمبيز لم يكن فارسياً ملك مصر ولكنه كان مصرياً ملك فارس !! وأنه لم يطالب بعرش مصر إلا لأنه كان ابن الأميرة المصرية نتيتا التى خطبها أبوه كورش، فهو أحق بالعرش من أحمس غاصب الملـك ومنـافس الفرعـون "وهـاب رع"!! وعلى هذا تكون يا صاح قد عكست الأمـر فرفـضت الدعايـة الوطنيـة وتشبثت بالأحدوثة الأجنبية!!

ثم أنت تؤاخذ "ايبر" ولا مؤاخذة على الرجل فى شـئ مـن هـذا، وإنما أشار إلى الأحدوثة – من المتأخرين المعروفين عنـدنا – ثلاثـة هـم ماسبر ومؤرخ "الأمـم الـشرقية" وجـستاف جكفيـه صـاحب كتـاب الحضارة المصرية، وبترى الأثرى الكبير، والأول والثالث قد ذكرا سبب دعايـة المـصريين بهـذه الأحدوثـة والثـانى ذكرهـا وحـدها ولم يـذكر الأحدوثة الأخرى ولا أشار إليها، وأمثال هذه الأحاديث على كل حال من الأساطير وليست من التـاريخ، ولكنهـا قـد تـستحب فى فكاهـات القصص والتمثيل.

ويطول بنا المقال – يطول بنا جداً لو أحصينا الغلط المبثـوث هنـا وهناك أثناء الرواية فى الأسماء وترتيـب الحـوادث ووصـف العـادات،

ولكن من يلوم المؤلف على مثل هذا الغلط لكمن يلوم الكافر على تـرك الحج والصيام، فبعد الكبائر لا ملام على الصغائر !! وحسبنا مـا تقـدم دليلاً سيئاً على ما فى هذه القمبيزية من خلط ذريع!!

***

obeikandl.com

الخيال

لخيال الشاعر عمل جليل فى الروايات التاريخية، لأن حوادث هذه الروايات أشبه شئ بالهيكل العظمى الذى يحتاج إلى الخيال الخالق المبتكر ليكسوه لحماً ويجرى فيه دماً ويبعث فى أوصاله روح حياة، فإذا بحثت فى رواية قمبيز عن أثر لمثل هذا الخيال فما أنت بواجده ولا مستطيع أن تفرض وجوده، ولن ترى هنالك إلا جسماً حياً جرده شوقى من لحمه ودمه فآض فى يديه هيكلاً عظمياً لا حراك به إلا كحراك الآلات الصماء.

ذلك أن فترة الغزو الفارسى كانت من أعمر الفترات فى تاريخ مصر بالحوادث الشائقة والمواقف الروائية والعبر الناطقة، فهى تملأ وطاب الشاعر لو كان على حظ من بديهة الخيال وقدرة التصوير والابتكار، وتتزاحم فيها " الشخصيات " المسرحية فينعم فيها الشاعر بزاد طيب يمتع به النظارة والقراء.

فما الذى صنعه شوقى بتلك الفترة؟ لقد كان مطلوباً منه أن يكسوها لحماً إن وجدها عارية، فعراها هو من اللحم وألقاها عظمة بالية.!. وكان هو بمثابة " قمبيز " آخر أغار عليها بخياله المنكوس فأعمل فيها معول التخريب والتجريد ونشر ريح الموت فى كل ما لمسه ورآه.

فمن شخصيات تلك الفترة الواضحة فى تاريخ العالم كله شخصية صولون الحكيم المشهور والمشترع الكبير: زار مصر على عهد أحمس ودرس حكمتها واقتبس من شريعتها ولاسيما قانون " التشرد " والصناعات، فما كان أحوج المسرح إلى ظهور هذه الشخصية!! وما أقدر المؤلف – لو كان شاعراً حقاً – أن يجمع فى دور صولون كلمات العظة والحكمة ويجرى على لسانه خلاصة التشريع فى العصر القديم ويبث فى منطقة اعترافه بما استفاده اليونان من مصر فى الدين والنسك والعلم والأخلاق !! أو ما كان أجدر هذه الحقيقة أن تذكر فى رواية يقال أنها وضعت لإعلاء قدر الوطنية المصرية وإظهار فضلها على اليونان وعلى العالمين.

ومن شخصيات تلك الفترة قارون ملك الليدين صديق الفلاسفة، مضرب الأمثال بالغنى ولاسيما فى الآداب العربية، خلعه الفرس وأسروه وأوشكوا أن يحرقوه ثم أطلقوه فاخلد إلى الزهد وقنع بحظه ووجد السعادة فى القناعة بعد أن عز عليه طلابها بالمال والسلطان. ثم زار مصر مع الفرس وتابع مصارع الأمم وشهد الدول كيف تدول وعرف السطوة فى نفسه وفى غيره كيف تحول وتزول، أفتوجد هذه الشخصية بين يدى شاعر يؤلف الروايات التمثيلية عن

عصره فيرمى بها وراء الستار ولا يبرزها مرة لتسمع الدنيا من فمها عبرة صاحب الكنوز ومضرب الأمثال فى جميع العصور؟ ألم تكن لقارون كلمة منتظرة فى زمن ران فيه حب المال على كثير من النفوس وقال شوقى عن نعيمه أنه "قتل حمية الفتيان" ؟

بلى؟ قد كانت له كلمة بل كلمات، ولكن أين شوقى وعبر التاريخ وأين شوقى وإلهام الخيال!

***

ومن حوادث ذلك العصر الرائعة غزوة الفرس للصحراء اللوبية التى تبدد فيها خمسون ألف إنسان، ثم غزوتهم للنوبة التى هلك فيها الجيش الفارسى جوعاً وعطشاً واتفقوا آخر الأمر أن يقترعوا على واحد من كل عشرة يأكلونه بعد أن أكلوا العشب ثم فقدوا العشب فى سهوب الصحراء... أى تمهيد لجنون قمبيز أفجع من هذا التمهيد وأحرى أن يقنع الناس باحتمال هذا الجنون؟ ثم كيف يستغنى الشاعر عن شرح هذه الضربة من ضربات القضاء وهو فى رواية فاجعة لا غنى فيها عن شرح غضب القضاء وغلبة الأرباب؟ لقد كان فى التاريخ تمهيدان واجبان لجنون قمبيز أحدهما هذه الكارثة والآخر إدمانه السكر وتماديه فى الشهوات، فأما إدمانه السكر فقد خبط فيه شوقى إحدى خبطاته

العشواء فعصم قمبيز من الخمر لاشتغاله بالغزو عنها كما قال !! وأما كارثة النوبة فقد رمى بها شوقى إلى ما وراء الستار ورمى معها بكارثة الصحراء اللوبية على طول الذراع....، وقد يقال أنه خشى الإطالة فنقول إن الرواية لم تزد على فصول ثلاثة فما ضره لو صارت أربعة أو خمسة؟ وإن كان لابد من ثلاثة فصول لا أكثر فهل كانت تضيق هذه الفصول الثلاثة باثنين من الفرس أو المصريين يتحاوران ويحكيان ما انتاب قمبيز بعد غزوة النوبة وغزوة الصحراء؟ أليس هذا خليقاً أن يفسر لنا هجومه على "هابى" ثم جنونه ثم مطاردة الآلهة المصرية إياه من البدء إلى الختام؟.

وعلى ذلك النوبة نعجب كيف تخطى المؤلف ذلك الحوار الشائق الذى دار بين بعثة فارس وملك النوبة؟ وكيف اكتفى من هذه الغزوة كلها بعرض الأسرى النوبيين على المسرح والعفو عنهم على أثر ذلك!! فإن حديث ملك النوبة مع بعثة فارس لحديث مسرحى لا يذهل عنه كاتب رواية تمثيلية ولا يعذر فى تركه إلا أن يكون جاهلاً به أو ساهياً عنه، وهو جهل فاضح وسهو معيب لا يليقان بمن يتصدى للكتابة فى تاريخ عصر الرواية وأهل زمانها.

وخلاصة الخبر أن البعثة الفارسية حملت إلى ملك النوبة فيما حملت إليه من الهدايا ثياباً مصبغة، فقال لهم قبل أن ينظر فى هداياهم: ما جئتم أصدقاء لنا وإنما جئتم عيوناً علينا...! ثم سألهم عن الثياب كيف يصنعوها فوصفوا له نسجها وصبغها فابتسم وقال: ثياب غشاشة من أمة غشاشين!! ثم تناول قوساً كبيرة وأغرق فى نزعها وناولهم إياها وهو يقول: إذا استطعتم أن تنزعوا فى أقواس كهذه فأقدموا على قتالنا.

وعادت البعثة فقيل أن قمبيز عجز عن علاج تلك القوس وأن بردية أخاه رمى منها السهم إلى أبعد مرماه فكان ذاك سبب حنقه عليه وقتله إياه، فالمنظر كله من أمتع المناظر على المسرح وعرضه على النظارة لم يكن من الصعوبة فى شئ. فأعجب كيف أغفله شوقى ثم أعجب له كيف أنطق قمبيز بالعفو عن أسرى الغزوة النوبية وهى علة خيبته وجنونه، وقل معنا بعد ذلك يا له من توفيق عجيب فى الغفلة والتشويه!!

ومما يحفظ من سيرة قمبيز أنه سلخ جلد أحد القضاة الفرس وهو فى قيد الحياة لخيانته أمانة القضاء، وهذا قبل أن يطبق عليه الجنون وتشتد عليه وطأة المرض... فكان قصاصه هذا عدلاً أقبح من الظلم وبادرة من الهوس الجامح تدل على ما بعدها.

ويحفظ له أيضاً أنه استوزر مصرياً من أقرباء أحمس وبسامتيك الثالث كان أميراً للأسطول فى عهدهما وكان اسمه "أزاهور رسنيت" وهذا الأمير هو صاحب التمثال الذى عرف الأثريون منه بعض سيرة قمبيز فى مصر وبعض عنايته بهياكل الأرباب المقدسة بإرشاد من "ازاهور رسنت" صاحب التمثال، وقد استمال قمبيز فاتخذ اسم "مسوت رع" ليتقرب إلى المصريين وينتظم عندهم فى عداد الفراعنة، والتمثال المذكور هو الوثيقة الواحدة التى بقيت فى عصر الغزوة الفارسية وتضمنت عن سيرة قمبيز شيئاً من التفصيل، ففى الرواية موضع لكل عمل من الأعمال يدل على شخصية "البطل" وتاريخ الفترة لو تنبه إليه المؤلف وكلف نفسه قليلاً من البحث والمراجعة، ولم يلق كل باله إلى أساليب الدعاية الخفية التى شب علها وشاب.

أما أحمس فهو أظرف شخصية فى عصر الرواية وجناية شوقى عليه أكبر الجنايات، فالتاريخ يحفظ له أساطير لطيفة وملحا جميلة هى من أخص صفاته مثل المصرى الشجاع العصامى ألا ريب المفراح، وكان مذهبه " أن النكتة لا تعذر" كمذهب جميع المصريين فى القديم والحديث. فكان لا يعفى نفسه ولا وزراءه ولا أهل بيته من النكتة إذا بدرت إلى لسانه، وقد لامه بعض صحبه على طربه ومزاجه وأوصاه أن

يأخذ بالتزمت والوقار فى سمته فقال له ما معناه: "ويحك! هبنى وتراً مشدوداً أترى الوتر يشد فى كل حين" ؟ واجترأ عليه بعض زملائه لما عرفوه من ماضيه وما أنسوه من حاضره فدعاهم يوماً إلى مأدبة وجعلهم يغسلون أرجلهم فى طست من الذهب، ثم دعاهم بعدها إلى مجلس أقام فى صدره تمثال اله، فركعوا له حين وقعت أعينهم عليه، فلما نهضوا قال لهم: أرأيتم هذا التمثال. إنه الطست الذى غسلتم فيه أرجلكم بالأمس: صيغ اليوم إلهاً فوجب له الخشوع والركوع !!

وكان حليفه "بوليكرات" ملك ساموس سعيداً فى مساعيه ظافراً بمآربه لا يهم بشئ إلا تم على ما يروم، فرووا أن أحمس كتب إليه يحذره مغبة هذه السعادة ويشفق عليه من حسد الأرباب ويوصيه أن يحرم نفسه بيديه من أعز شئ لديه قبل أن تجرعه الأرباب بيديها مرارة الحرمان، ورووا أن بوليكرات استمع لنصحه فقذف إلى اليم بخاتم نفيس فى أصبعه كان يغالى بقدره ويضن به على الضياع، فما هى إلا أيام حتى عاد إليه الخاتم فى جوف حوت!! فنما الخبر إلى أحمس فتشاءم من صداقة بوليكرات وعلم أنه لا محالة منكوب وأن الدنيا لا تواتيه بهذه السعادة ألا وهى تضمر له أفجع العواقب، وقيل أنه أشفق أن يلحق به

طائف من عقابيل هذه السعادة فجر إشفاقه هذا إلى انفصام العلاقة بين الملكين وتحوّل بوليكرات إلى جانب قمبيز.

هذا طرف من أقاصيص أحمس وهذه مسحة من شخصيته الظريفة، فانظر ماذا صنع به شوقى جزاه الله؟ صنع بذكراه مثل ما صنع قمبيز بجثته... فراح مظلوماً بين خيال قمبيز القديم وخيال قمبيز الجديد!! وجزم صاحبنا بقتله "لوهاب رع" ثم قال شارح الرواية فى ختامها " أنه نادى بنفسه ملكاً على مصر فى أثناء ثورة عسكرية فى ليبيا وعاد بعد ذلك إلى مقر الملك فانزل ابرياس (أى وهاب رع) عن عرشه وقتله ثم استوى على عرش مصر!! ".

أرأيت؟ هكذا قال تاريخ شوقى وتاريخ شارحه اللبيب أما تاريخ الناس فيقول أن أحمس اشرك وهاب رع فى الملك بعد أن هزمه فى وقعة مومفيس "لعلها منوف". ثم بقيا معا يسوسان مصر ثلاث سنوات، واقترن اسماهما معاً فى بعض الآثار ومنها هيكل "تاحوتمى الثالث" فى العرابة المدفونة ومقبرة فى "صا" ومعبد فى منف وختم نُقش اسماهما عليه مقترنين.

ونص اللوح الذى فيه نعى وهاب رع على أنه خرج من القصر "بصا" فى شهر بؤنة من العام الثالث لحكمه مع أحمس، ثم ذهب إلى

حيث جمع الإغريق وتصدى بهم لحرب صاحبه فهزمه هذا، ثم كانت الواقعة الفاصلة فى الثامن من هاتور، فلما أحس الإغريق بالهزيمة وتغرير فرعون "وهاب رع" بهم قتلوه وأخذه أحمس فدفنه فى مقبرة آبائه.

أما "هيرودوت" فقد روى أن المصريين هم الذين طلبوه من أحمس حين عفا هذا عنه وأبقاه، - وذكر أنهم تذمروا لمسامحته إياه بعد ما خانهم مراراً وجشمهم كل ذلك العناء فأخذوه وشنقوه وعاد أحمس فدفن جثته فى مقبرة آبائه برعاية وإكرام.

فعلى الروايتين لم يكن أحمس قاتل "وهاب رع" بعد الوقعة الأولى ولا بعد الوقعة الأخيرة، فمن أين جاء شوقى وشارحه بذلك التخليط؟ ألم يكن تصحيح الوقائع أنقى لتاريخ مصر وأدنى إلى تصور الموقف الذى صمدت له "نتيتا" فأقدمت فيه على التضحية وأبت أن تكاشف قمبيز بحقيقة نسبها؟.

لقد كان ذلك أنقى وأدنى إلى المعقول، ولهذا على ما نظن تجاوزه شوقى إلى ما هو أزرى وأبعد من المعقول!! وهكذا انتظر الناس من الرجل أن يكسو عصر روايته وأبطالها خيالاً فجاء هو ستره الله فجردهم جميعاً من الخيال!!

هكذا كان خيال شوقى فيما يسعده فيه المؤرخون، فللقارئ أن يتصور كيف تكون المواقف والشخوص التى يعول فى وصفها على خياله وحسبُ أو على ابتكاره الذى لا معول فيه على مصادر التاريخ.

ونظن أن القارئ نفسه ليحتاج إلى خيال واسع لكى يتصور هذه المناقضة النادرة المثال: مناقضة شاعر يسمى أمير الشعراء ولا يكون عنده قسط من الخيال ولا نصيب من القدرة المبتكرة يعينه على وصف موقف واحد أو شخص واحد وصفاً يخلو من الإحالة والشطط والصبيانية والتهافت... ! فمن معجزات الخيال أن يتصور الإنسان وجود شاعر كهذا فوق الأرض وتحت السماء، وما كان من سبيل إلى هذا التصور لولا أن شوقياً موجود يرى بالعين ولا يطول فيه جهد الخيال.

وإلى القارئ بعض تلك الأوصاف الخيالية التى أخال فيها شوقى جهد الإحالة ولم يقف فيها عند حد العجز عن تصوير الحقيقة بل تعدى ذلك إلى مسخها والإتيان بضدها موقفاً فى سخفه أى توفيق مطرداً فى عوجه أغرب اطراد، فلو أنه ألهم الصواب كما ألهم الخطأ لكان شاعر الأرض غير مدافع ونبىّ الوصف الصادق بلا نكران.

جاء وفد قمبيز إلى مصر يخطب ابنة فرعون فقال أحدهم بعد أن جاس خلال البلد:

خطبنا إليهم أمس بنت مليكهم فما كان إلا الاحتقار جواب

وأشفق أهلوها وقالوا حمامة دعاها على الوكر السحيق عقاب

فلم يعترض عليه أحد من صحبه وسلموا جميعاً أن احتقار خطبة قمبيز أمر لا يستغرب ولا يكبر على المصريين، وإشاعة ذائعة يعرفها من راح أو غدا فى الطريق.

وبينما هم فى الحديث إذ يقول أحدهم:

أعلمتم ماذا يردد فى القصر وماذا يقال همساً ووحياً ؟

فإذا سألوه وأحاطوا به ليسمعوه أن هذا السر لا يخرج عن الكلام الذى أفضى إليهم به زميلهم الأول قبل لحظة فما راجعوه ولا استغربوه، ولكنهم هنا يثورون بالقائل ويسخرون منه ويصخبون فى الأمر صخب الذين فوجئوا بكبيرة الكبائر بل "بأكذوبة الأجيال"... وهذا بعض ما دار بينهم من صخب على أثر سماعه:

الثانى – هازل أنت ؟

الأول – بل سمعت حديثاً إن يكن مفترى فماذا عليا

آخـر – أنـه يهـذى دعـوه كـــاذب لا تـــسمعوه

مـــا الـــذى زخـــرف؟

الثالـــــث – القـــــى كذبـــه الأجيـــال فـــوه

يـــزعم الملكـــة نفـــر يـــت ابنـــة الملـــك أمـــازس

تـــرفض الـــسير مـــع الـــو فـــد إلى اقطـــار فـــارس

آخـر: مـا خطبـه مـا يـدعى امـــض بنـــا لا نـــسمع

آخـر: يقـول فرعـون مـصر لم يـــرض قمبيـــز صـــهرا

الثانى: من امازيس، ما الأمـير ة ما مصرُ أفى الأرض من بقمبيـز يهـزا

أهـــذا خـــبر يـــروى غبـــى أنـــت والله

أتحـــت القبـــة الـــزر قـــاء مـــن يـــسخر بالـــشاه؟

لا يستغرق إلقاؤه على المسرح من بدايته إلى نهايته أكثر من خمس دقائق، وليس بعد هذا عجز فى استقامة التصور وصدق التصوير.

ثم الوفد ما صفته وما حاله؟ أضعف الناس إدراكاً يستطيع أن يدرك أن وفد الخطبة لا يكون إلا من نخبة الحاشية وآل بيت الملك ومن ضارعهم بين أقطاب الدولة، فهم أرفع من أن يذهلهم الطعام عن عقولهم وتستخف الموائد أحلامهم وتطير بوقارهم. وهم أشجع من أن

تفزعهم رؤى الأطفال وتطغى على منامهم وساوس الصغار. فأما فى الشجاعة فقد جعلهم يرقدون فما يقدرون على النوم من الفزع لرؤية التماسيح والثيران، وأما فى خسة النفس على الطعام فهذا منظر يطلع فيه هؤلاء الوجوه الذين يقول فرعون لأحدهم:

أنت لا تجعل من أنظمة الد ... يوان شيا

فإذا هم يفتنون بألوان الطعام المألوفة فتنة السوقة الجياع قد أنساهم الجوع التجمل وأذهلهم عن التصون، فيصيح بعضهم:

فيروز انظر ترى الخرافا ... حمرا لطافا على الخوان
ذا سمك النيل فى الأوانى ... كأنه معصم الغوانى
وأعين تلك فى جفون ... أم ذلك البط فى الجفان

ويتصايحون واحداً أثر الآخر بمثل هذا الفضول الذى لا يصدر من ذى مروءة فى داره وبين عشيرته فضلاً عن دار الغربة وموقف الخطبة. وأن اضطراب الخيال وصف ما يقدم على مائدة قمبيز وما يراه الحاشية هنالك من ألوان الطعام فإذا هو أفخر من الخراف وسمك النيل والبط: واليكة كما جاء فى الرواية:

الوصيفة: كان العشاء ملكتى ... مائدة محملة
أكلت يا سيدتى ... من أرنب متبلة

ثم أكلت من حمل وحمل الفرس جمل

الملكة: ثم؟

الوصيفة: جاءوا بالطير فى الأطباق

الملكة: طير من؟

الوصيفة: طير فارس والعراق

الملكة: ثم ماذا؟

الوصيفة: ثم جاءوا بالسمك فرأيت الملك فى الأكل انهمك

الملكة: ثم ماذا؟

الوصيفة: لا أعد ما حضر من لحوم وبقول وخضر

ثم بالحلوى أتوا والفاكهة

الملكة: كيف كانت؟

الوصيفة: تشتهيها الآلهة

فهذه أصناف الطعام فى فارس لا تقل عن مثيلاتها فى قصر فرعون بل تفوقها. وهى من المطاعم التى تغرى الأميرة المصرية بالأكل كما قالت:

وقـــد يغـــرك بالأكـــل طهـــاة الفـــرس والـــشام

فما الذى أذهل الحاشية الفارسية إذن كل ذلك الذهول لـولا أنهـا فهاهة وسخف وتهافت فى التصور والخيال؟

ويلحق بهذا التهافت أن ترجع إلى الحـوار بـين الملكـة والوصـيفة فترى أن الملكة هى السائلة عن أصناف الطعام والوصيفة هى المجيبة... مع أن الملكة هى التى أكلت ولم تحضر معها الوصـيفة، بـل كانـت مـن جانب الحجرة مختبئة.

فما معنى هذا السؤال المعكوس لولا أنهـا أيـضاً فهاهـة وسـخف وتهافت فى التصور والخيال؟

وأعجب من جميع هذا أن تسمع الوصيفة اسم بردية أخـى الملـك فتسأل: من بردية؟؟ وقد كان ظننا أن شوقياً أقدر على تصور البلاط من هذا لأنه بيئـة عـاش فيهـا ورآهـا ولا حاجـة بـه إلى إجهـاد الخيـال فى تصورها. فإن الحاشية مطبوعة على استطلاع الأسرار والنـساء خاصـة اشد استطلاعاً لها وتنقيباً عنها فى جحورها، فلا نعرف إحالة فى أغـرب من وصيفة فى القصر لم تسمع باسم أخى الملك الذى كان زينـة شـباب عصره جمالاً وفروسـية وبأسـاً وكـان شـقيق قمبيـز وأقـرب الأقـربين إليه.... أنها إحالة شوقية ولا زيادة..!!

وقد شاء شوقى أن يجعل سفر "نتيتا" ضرورة ألجأ إليها اتقاء الغارة الفارسية، ولكنه مع هذا شاء ألا يجعلها ضرورة على الإطلاق !! فقرر أن غارة فارس كانت أمراً مقدوراً لا مفر منه سواء أقبل أحمس تزويج بنته من قمبيز أم لم يقبل، عرف ذلك الوفد الفارسى فقال أحد رجاله قبل أن تبرح الأميرة المخطوبة أرض مصر.

يهب عليها غداً عاصف ... من الفرس أنى تمشى حصد

وقال آخر: غداً يصب عليهم ... قمبيز سوط عذابه

وقال آخر:

صدقت أخا الفرس قلت الصوا ... ب يعصف الفرس أو بعد غد

وقالت " نتيتاس " نفسها قبل أن تبرح قصرها..

غداً تذرو رياح الفر ... س من موتاك ما تذرو

غداً يصبغ من شط ... لشط بالدم النهر

غداً يهتك عن أربا ... بك المحراب والستر

و"نتيتاس" هذه هى التى أيقنت قبل ذاك أنها حسمت الشر ودفعت الخطر فقالت ترد على نفريت:

تفريت – أتيتنى شامتة

نتيتـــــــــــــاس - لإبـــــل أتيـــت مـــسعدة
آمـــون قـــد مـــد إليـــ ـــك وإلى الـــوادى يـــده
وقـــد كفـــى مـــصر الـــبلا ء والخطـــوب المرعـــدة
وكـــف عـــن ريوعنـــا نـــار المجـــوس الموقـــدة

فهل الفدية ضرورة لازبة أو غير ضرورة لازبة؟ لابد من أحدى الاثنين: أما الاثنتان معاً فلا...!

***

ولما جاءت نتيتاس تلقى أحمس لتبلغه عزمها على السفر إلى بلاد الفرس مكان ابنته الآبية شاء شوقى أن يجعل الحديث بينهما سراً تخرج نفريت – ابنة أحمس – من الحجرة لكى لا تسمعه... على أن هذا السر قد عرفته نفريت قبيل ذلك من نتيتاس نفسها حين قالت لها.

أتيـــت لمـــصلحة الآخـــر ين وجئت لـشأن جليـل العظـم
أتيـــت أفـــدى بنفـــسى الـــبلا د وأدفـع عـن مـصر شر العجـم
فإنـــك إن ترفـــضى يزحفـــوا كزحـف الـذئاب، ونحـن الغـنم

وشبيه بهذا أن يطلع قمبيز على سر هذا التبديل فيغضب ويجعله سبباً لغزوه مصر وإنذار زوجه المصرية بتخريب وطنها...!

وأنه لفى الحجرة لم يفارقها إذ جاءه نبأ الرسل والجواسيس الـذين بعثهم إلى مصر يستطلعون الطريق ويحكمون تدبير الغارة قبل أن يسمع بخبر التبديل بين العروسين وقبل أن يغضب تلك الغضبة "البريئـة"!! فهلا كان هنا بعض التصرف للتوفيق بين الأمرين؟!

وإن قمبيز مرة لوحش يصف نفسه فيقول " أنا وحش أنا غـول " وتصفه امرأته فتقول أنه " نمر الفرس الخـشن " وأنـه لمـرة أخـرى وفى سياق الحديث نفسه.

لا هـــو بالملـــك البربـــر ى ولا الوحش ذى الناب والمخلب

ثم تكون زوجه هى التى تقول للوصيفة التى نفت عنه الوحشية:

صدقت "تتا" هو زين الشباب الـــه القنـــا قمـــر الغيهـــب

فلا اتقى شوقى هذا التناقض أو تنبه إليه؟

***

ونحسن الظن بشوقى قليلاً فنحاسبه على الحالات التى لا يحاسب عليها مثله ولا يسأل عنها إلا من هم أدق منه بديهة وأكيس منه خيـالاً، وإن لم يكن التنبه إليها بالشئ الكثير.

فقد قال بلسان فانيس يخاطب الأميرة نتيتاس ليقنعها بقبول غزوة قمبيز لبلادها مصر:

دعيه يعاقب سارق التاج مثلما يعاقب فى منفيس لص لآل

واللآلئ لم تكن مما يسرق فى منفيس!! لأنها لم تعرف فى مصر قبل عهد البطالسة (راجع كتاب المواد المصرية القديمة للأستاذ لوكاس) ولو أنها كانت معهودة شائعة فى منفيس على أيام أحمس لما جاز أن تخص بالذكر فى هذا المقام، وإلا فهل لص الذهب أو الملابس أو الآنية مثلاً لا يعاقب ويرذل ويزدرى؟ فالقافية هى التى جنت على شوقى فأوقعته فى الإحالة التاريخية والغثاثة المعنوية. ولو أنه قال:

دعيه يعاقب سارق التاج مثلما يعاقب فى منفيس سارق مال

لأصاب ولم يسف فى لفظه، لأن كلمة المال تشمل كل ما يملك ويسرق، ولأن مقابلة السارق فى الشطر الأول بالسارق فى الشطر الثانى أجمل من ذلك التعسف الذميم الذى يلام عليه حتى المبتدئ من النظامين.

وقال بلسان فرعون الأسير:

أن الجواهر فى التراب جواهر والأسد فى قفص الحديد أسود

ظن شوقى أن أقفاص حديقة الحيوان فى الجيزة كانت مألوفة على هذا النمط منذ القدم! فضرب ذلك المثل العقيم ولم يخطر له أنها فى مصر

شئ حديث متأخر، ولا استطاع أن يتخيل لحبس الأسود حالاً غير هذه الحال التى يراها بعينيه. وإنما كانت الاسود تحبس فى جب أو غار، وكانت مع هذا تعبد حين تحبس فلا هوان إذن فى الحبس ولا نقصان، ومتى انتفى الهوان فالمثل الذى ضربه شوقى لغو عقيم.

وكلم فرعون رئيس وفد فارس فقال له:

سيدى لو تقول لى كيف قمبيز والقدح

ومن هو المتكلم؟ هو فرعون الذى تأفف قبيل ذلك من إفراط نتيتاس فى مجاملة الفرس، وما زادت على الترحيب والاعتذار.

فمتى كان فرعون هذا يخاطب خادم ملك آخر بقوله "يا سيدى" فى عهد التأليه والتقديس؟ ذلك خطاب يجوز سماعه الآن ولا يقاس عليه، أما فى أبان الإلهية الفرعونية فما كان ليسمع وما هو بالخطاب الذى يخطر على بال مستقيم.

***

على أن أضحوكة الأضاحيك حقاً حديث حاشية قمبيز فى الموقف الذى مات فيه قمبيز، ففى ذلك الموقف بخع الملك نفسه بعد أن جن وثار جنونه وقتل صحبه وبطانته وترك من حوله يتساءلون متى يحين أجلهم يا ترى فى هذه المقتلة الجزاف؟ فانظر كيف كان رجال الحاشية

يتكلمون فى ذلك الموقف المرهوب قُبيل انتحار ملكيهم وهو بينهم هائج الضمير يذكر آثامه ويتخبط من الصرع والندامة.

رستم لحيدر: وأين منزل الضمير؟

حيدر: موضع من الجسد

انظر هنا يا رستم الـ ـقلب من الجسد
وها هنا الضمير بين الـ ـقلب والكبد قعد
رستم: هنا الدجاج والحما م ها هنا بلا عدد
حيدر: والبط أيضاً والاو ز والحمار والوتد
وكل ما تسرق أو تخط ـف من هذا البلد

فهو يحسن أن نختم النقد بهذا الموقف الذى ختمت به الرواية. فلعل الذين يترنمون بشعر شوقى من غوغاء الأدب يعلمون الآن ماذا ينقصه من أداة الشاعر المتخيل المبتكر فيعلمون منزلة الشعر الرفيع ويفقهون أنه مركب ليس بالسهل وصناعة لا تغنى فيها الطلاوة والنعومة فى الصياغة، فهذه قدرة تكسب بالمرانة الطويلة ولا تعدو طبقة الملكات الآلية والصناعات اللفظية، أما الشعر الرفيع فهو الخلق والابتكار والقدرة على تصور الحياة فى صورتها السليمة الكاملة بلا

علاج ولا تشويه، فالخيال الذى لا يرى أو لا يرى الأمور إلا على عكس ما ينبغى أن تكون عليه آفة وعيب وليس بقدرة ورجحان.

وقد أبى شوقى إلا أن يفرغ جميع نقائصه فى رواية قمبيز التى لم نشهد له رواية قبلها على مسرح التمثيل، ففيها كل عيوب ذهنه وكل عيوب خلقه.

ودعنا من عيوبه التى تعنيه فلا شأن لنا فى هذا المقام، وإنما نعتبر بما نراه فى الرواية من تقلب هذا الإنسان بين الناس وتمليقه للنقيض والنقيض، فأما الشعب فهو يتملقه بما لا يضير ذوى النفوذ من دعاء وصخب! وأما ذوو النفوذ فهو يتملقهم بما يسرهم ويريحهم حين يسمعون مثل قوله: "مولاى أن الوفد فى ارتياع..." أو مثل قوله وهو يتكلم عن وفد فارس...:

فمن من الوفد برأ ... سه إلىّ يدفع

ثم يقول: حوتيب ما من أحد ... هان عليه رأسه

أنظر إليهم كلهم ... عزت عليه نفسه

إلى غير ذلك من التعريضات التى يقابل بها صاحبنا كل وجه ويدور بها فى كل مدار وينوح بها فى كل مأتم ويرقص بها فى كل عرس..

وهكذا تحار الدنيا كيف ترفع شوقياً يرتفع به الرجال فيأبى هو ألا أن يكون حيث كان ويقر حيث طاب له القرار.

* * *

obeikandl.com

شوقى بين يدى قمبيز

رواية شعرية "غير تمثيلية"

قمبيز لكاهنه سابور:

سابورّ من ذاك القزَم ... فى جانب من الهرم

يظهر حينا ويرو ... غ روغان المتهم

سابور الكاهن:

مولاى هذا شاعر ... فى مصر يغتاب الأمم

يرجمها ويحتمى ... خلف الدهور فى أجم [1]

أضعف من صاغ مديحـ ... ـا فى القصيد أو شتم

يرعى ذوى البأس ولا ... يرعى العهود والذمم

ما قال لا قطُ ولا ... يصدق إن قال نعم

وناطقٌ إذا جرى ... حديثه على القلم

لكنه فى صمته أبلهُ ... أو فيه بكم

وربما شاهدته ... فى حيث جال أو جثم

خالس حينا نظرة ... عجلى، وحينا اقتحم

(1) – مأوى الأسد.

تطـــير عينـــاه ولـــو لبّـــى هـــواه لهجـــم

قـــد عانـــد الأقـــدار لا يكـــون يومـــاً ذا شـــمم

لـــو ارتقـــى العـــرش ارتقـــا ه وهـــو فى زى الخـــدم

قمبيز:

يـــا عجبـــاً لأمـــره ألا نـــراه مـــن أمـــم [1]

الكاهن:

مـــولاى دعـــه، إنـــه يثلبنـــا فـــيما نظـــم

قمبيـــز: ومـــا يقـــول ويحـــه؟

الكاهن:

يقـــول... بـــئس مـــا زعـــم

يقـــول مـــولاى طغـــى يقـــول مـــولاى ظلـــم

لا بـــل يقـــول كـــذبا ينقـــضه فـــيما رجـــم

كـــأنما ينعـــت مـــسـ ـــخا شـــائها ذاك القـــزم

(1) من قرب.

قمبيز:

يـــا ويلـــه جئنـــى بـــه أشـــفيه مـــن داء الـــبكم

جئنـــى بـــه إن جـــسدا حيـــا يُـــرى، وإن عـــدم

ألا تطيقهـــــــــــا؟

الكـــــاهن: بـــــلى! أطيقهـــــا ولا جـــــرم

الكاهن مستمراً مزمزماً:

يـــا أهرمـــان [1] هاتـــه أخرجـــه مـــن بـــين الظنـــم

يـــا أهرمـــان جـــره مـــن رأســـه أو القـــدم

يـــا أهرمـــان الـــوَحى [2] لـــن تخلـــف الوعـــد ولم

مـــا أنـــت عنـــه عـــاجز كـــلا! وإن طـــال القـــدم

***

(1) أهرمان هو إله الشر والظلام فى ديانة زردشت نبى الفرس القديم.

(2) الوحى بفتح الحاء أى السرعة وهى كلمة ينطق بها السحرة لاستعجال الشياطين.

شوقى بين يدى قمبيز

قمبيز متهكماً:

ها... أنت جئت عندنا؟! يـا مرحبـا... أهـل الكـرم!

شوقى:

لبيك مولاى...

قمبيـــز:... أجـــل لبيـــك أنـــت يـــا قـــزم

يـا مـسخ مـا غـرك بـى؟ حـــسبتنى مـــن الـــرمم؟!

مـــسخٌ أنـــا تزعمنـــى؟ انطـــق. تكلـــم يـــا صـــنم!!

شوقى: أنا؟!

قمبيز: نعم! ومن إذن؟

شـــــــــــوقى: بـــل ذاك خـــصم قـــد نقـــم

أنـــا مـــدحت ســـيدى وقلـــت خـــير مـــن حكـــم

وقلـــت خـــير مـــن رمـــى وقلـــت خـــير مـــن صـــدم

كـــم فى مدينـــة حمـــى وفى ميـــادين هـــزم

لا جـــور فيـــه أن أصـــا ب أو أثـــاب أو حـــرم

دعنَـــى أذهـــبْ وأجـــئْ بما رقمت

قمبيز: لا تـــــــــــــــرم [1]

لتقضـــــينّ هـــــا هـــــنا

الكـــــــــــــــاهن: عـــلى اللظـــى! أو الوضـــم [2]

ألم تلفـــــــــقْ قـــــــصةً ســـــميتها باســـــم "العلـــــم"

فيهـــــا تقـــــول مـــــا تقـــــو ل مـــــن هـــــراء وتهـــــم؟

شوقى:

حاشـــــاى! لم انظـــــم ولا كـــــان لـــــسانى إن نظـــــم

كـــــلا! وحـــــق النـــــار والنـــــو ر، وحـــــــق ذا الحـــــــرم

لكنـــــه "العقـــــاد" سواهـــــ ـــــــا... ومثلـــــه اجـــــترم

ألـــــف " قمبيـــــز " والقـــــ ـــــــاها عـــــلىّ، واعتـــــصم

أحلـــــف كـــــل حلفـــــة! أقـــــسم أحـــــرج القـــــسم !

قمبيز:

كيـــــف تـــــرى ســـــابور فى هـــــذا المحـــــال والـــــوَهم [3]

---

(1) رام المكان يريمه أى برحه.

(2) الوضم خشبة يكسر عليها العظم ويقطع اللحم.

(3) الوهم بفتح الهاء الغلط فى التقدير والحساب.

أهـــــازل صـــــاحبنا؟ أم مـــسه بعـــض اللمـــم [1]

الكاهن: مولاى تلك شيمة فيـــه

قمبيز: وبئـــــست الـــــشيم

لنهلـــكنه إذن!

الكاهن: أمـــرك فيـــه. لا ســـلم!

شوقى:

يـــا رجـــل الـــدين أغثـــ ـــنى. لا طغـــت بـــك القـــسم

كـــن شـــافعاً، كـــن حكـــما أنـــت الـــشفيع والحكـــم

ولا تـــــزده غـــــضبا حسبى مـــن الخطـــب النـــدم

أنـــا مـــدحت ســـيدى ومـــا جحدتـــه العظـــم

أنـــا هـــدمت بيـــدى مـــن مـــصر فـــوق مـــا هـــدم

أنـــا ســـلبت أهلهـــا خـــيم [2] الرجـــال والهمـــم

رميـــتهم بـــالجبن والـــو هـــن وبالجهـــل العمـــم

وبـــــالفجور تـــــارة وبـــــالغرور والـــــوخم

---

(1)الجنون الخفيف.

(2) الخيم بكسر الخاء الطبيعية أو السجية.

وقلـــت كـــلُ مـــارق ... يخـــون مـــصر لم يُلـــم

وقلـــت انـــتم الـــذئا ... ب وبنـــو مـــصر الغـــنم

فكيـــف لا ترحمنـــى ... وأنـــت أولى مـــن رحـــم

هـــذى ضـــلوعى كـــاللظى ... هـــذى دمـــوعى كالـــديم[1]

الرأفـــة الرأفـــة بـــى ... مـــن يـــربح الحمـــد اغتـــنم

الكاهن:

حمـــدك أنـــت مغـــنُم؟! ... طـــوبى إذن لمـــن يُـــذم

كفى

شوقى:... أجرنى

الكـــاهن لا مجـــير ... اليـــوم مـــن مـــوت حـــتم

قمبيـز: لا بـل تـشفع للخبيـ ... ـــث واتـــسم بهاوســـم

أضـــحكنا وقـــد بكـــى ... وسرنـــا ومـــا ابتـــسم

فـــاختر لـــه منيـــة ... يحمـــدها إذا انـــصرم

شوقى:

منيـــة؟! يـــا وليتـــا ... ه... مـــا عفـــا، ولا عـــزم

(1) جميع ديمة وهى المطر الدائم.

خلتـــك تعفـــو ســـيدى والعفـــو أحـــلى وأتـــم

ومـــا انتفـــاعى بالـــشفا عـــات إذا المـــوت دهـــم

قمبيز:

كيـــف؟ أهكـــذا نـــرى جهـــل الحكـــيم بـــالحكم؟

كـــم صـــور للمـــوت أشـــ ـــهى مـــن شـــهيات الـــنعم

بـــين حمـــامين كـــما بـــين شـــفاء وســـقم

فاختر

شوقى:..... أنا اختار؟

الكـــــاهن: هـــــل تـــأذن لى؟

قمبيز: نعـــــم. نعـــــم

شـــأن الخبيـــث هـــين كلـــه إلى بعـــض الحـــشم

هـــم بمنايـــا مثلـــه أولى، وأدرى بـــالقيم

نلهـــو بـــما اختـــاروا ولا يمـــسنا منـــه وصـــم [1]

(1) الوصم بفتح الصادر المرض.

قمبيز:

هـــذا ملـــيح، فـــادع يـــا حاجـبُ، مـنهم مـن رسـم [1]

الحشـــم يدخـــلون

قمبيز مستمراً:

يـــا حـــشم القـــصر انظـــروا إليـــه مـــن حيـــث نجـــم

هـــذا ســـليطٌ ينتحـــى بالـــشعر شـــاهات العجـــم

فـــاقترحوا فيـــه المنـــ يـــا واســـألوا فيـــه الـــنقم

صـــفّوا لـــه مائـــدة لا يتخطاهـــا الـــوَحم

يُحـــرق؟ أم يُغـــرق؟ أم يُرمـــى بـــه؟ أم يُـــصطلم [2]

شـــوقى: يـــا حربـــا!

أحد الحشم: يـــا عجبـــا

ثان: مـــاذا جنـــى؟

ثالث؛ كيـــف غـــشم [3]

(1) رسم إليه حضر إليه مسرعا.

(2) اصطلمه قطعة من أصله.

(3) غشم أى خبط فى الطريق بغير مغرفة.

أحدهم:

نسلّ منه مقولا فاه به، وما احترم

يخرس عن أمثالها

الكاهن:

لا خرسٌ ولا صمم

لسانه أشقى به وهو به أشقى النسم [1]

ثان: النار!

شوقى: النار تغذ وهابجسم من هنات وهرم؟

يا سوء ما امترت لها من الطعوم والطعم

الكاهن:

لا تحملن همها يكفيك همك الأهم !!

الثالث:

نلقى به حيا لعقـ بان الهواء والرخم

رابع:

نسلخ جلد وجهه نفرى [2] عن الجسم الأدم

---

(1) جمع نسمه وهى النفس.

(2) فرى قطع والادم الجلد.

الكاهن:

مـــا للأديـــب يلتـــوى مـــا للأريـــب قـــد لطـــم

خامس:

هبـــه لـــوحش لقمـــة ســـائغة مـــن اللقـــم

شوقى:

بـــل تـــرحم الـــوحش فـــيما فى شـــفاء مـــن قـــرم [1]

سادس:

إن شـــاء مـــولاى ففـــى الخـــ ـــازوق تكفـــير الأثـــم

شوقى:

وكيـــف بالخـــازوق فى غـــير عنـــاء وألم؟

***

الكاهن:

أمـــا كفـــاه ســـيدى! مـــات ولمـــا يخـــترم [2]

(1) القرم شهوة اللحم.

(2) اخترمه الموت قضى عليه.

ما واقع النار وقد حال إلى لون الحمم [1]

وما علته ضربة وفيه قد دب الورم!

قمبيز:

لا بل كفانا ضحكا منه، وترفيه سأم

فانفض رقاك [2] واعدُه وعد بنا إلى الرجم [3]

شوقى متنبهاً:

ما هذه الأشباح؟ ما هذى الرؤى ؟ ماذا ألم؟

عينَى طال نومها ؟ أم هى يقظى لم تنم

التوبة التوبة ! لا عرضتُ حتى للرمم

الرهبة الرهبة أنْ باح لسانى أو كتم

حذار سحر فارس وسحر سائر الامم

أن السعيد حازم أبداً حزماً وختم

***

(1) جمع حمة وهى كل ما احترق بالنار.

(2) الرقى جمع رقية وهى قوة السحر ووسيلته.

(3) الرجم القبر.

obeikandl.com